

صورة أنثى الحيوان في الحكايات الشعبية الموجهة للأطفال: حكايات جدتي

لسيد أحمد نجمة أنموذجا

The image of the female animal in folk tales for children. My Grandmother's Tales by Sayyid Ahmad Najma as an example

سديري خولة^{*1} ، المركز الجامعي سي الحواس بركة، الجزائر،

khaoula.sediri@cu-barika.dz، مخبر الشعرية الجزائرية، جامعة محمد بوضياف، المسيلة.

شينة نصيرة²، المركز الجامعي سي الحواس بركة، الجزائر،

Nassira.china@cu-barika.dz

تاريخ قبول المقال: 12-10-2023

تاريخ إرسال المقال: 01-08-2023

الملخص:

تسعى هذه الدراسة لاستجلاء صورة الحيوان في الحكايات الشعبية الموجهة للأطفال، إذ تمثل قصص الحيوان أحد المحاور الكبرى للحكاية الشعبية في تراثنا الأدبي، تضطلع فيها الحيوانات بمهمة لعب الأحداث وإيصال الفكرة والتأثير في المتلقي، بما تكتنفه شخصياتها من أبعاد فكرية رمزية وجمالية، وغالبا ما تمثل الشخصية الأنثوية في قصص الحيوان الصورة الذهنية الواقعية للأنثى، فهي مستوحاة من المخيال الجماعي الشعبي الذي يعكس التصورات النفسية والاجتماعية للشعوب. وهو ما وقفنا عليه من خلال دراستنا لقصص الحيوان الواردة في المدونة: "حكايات جدتي لسيد أحمد نجمة"، وقد قادنا تحليلنا للرمزيات الأنثوية في هذه الحكايات إلى التوصل إلى أنّ الصورة الذهنية النمطية المترسّخة عن الأنثى انعكست في الإبداع الجمعي على لسان الحيوان، وقد تأرجحت هذه الصورة بين السلبية والإيجابية.

الكلمات المفتاحية: الحكاية الشعبية، رمزية الحيوان، أدب الطفل، صورة الأنثى.

Abstract: This study seeks to elucidate the image of the animal in folk tales aimed at children, as animal stories represent one of the major axes of the folk tale in our literary heritage, in which animals carry out the task of playing events, conveying the idea and influencing the recipient, with their characters shrouded in symbolic and aesthetic intellectual dimensions, and often the female character in Animal Stories represents the realistic mental image of the female, they are inspired by the popular collective imagination that reflects the

* سديري خولة.

psychological and social perceptions of peoples. This is what we have found through our study of the animal stories contained in the blog: "My grandmother's tales by Sayed Ahmed Najma", and our analysis of the female symbols in these tales led us to conclude that the entrenched stereotypical mental image of the female was reflected in the collective creativity on the animal's tongue, and this image has oscillated between negative and positive.

Key words: Folk tale, animal symbolism, children's literature, female image.

مقدمة:

مثل أدب الطفل محورا تلاقت فيه الدراسة الأدبية الفنية مع العديد من الدراسات النفسية والاجتماعية والأنثروبولوجية والدينية؛ ذلك أن الطفولة هي أول مرحلة في حياة الإنسان وأهمها، ففيها تتموضع اللبّات الأولى لشخصيته، وعلى إثرها تتبنى رؤاه للعالم، لأنها المساهم الأول في تشكيل نمط سلوكه، وطريقة تفكيره، ولهذا تُسمّى عموما مرحلة التربية. ومن هنا جاء الاهتمام بأدب الطفل، فكلّ ما يتلقاه طفل اليوم سيساهم في بناء إنسان الغد.

وتعدّ الحكاية الشعبية الموجهة للطفل من أهم أشكال أدب الطفل، فيميل الطفل لسماع حكاياتها الخرافية، والاجتماعية، ويتعلّق بقصصها المختلفة؛ والتي من بينها قصص الحيوان، التي تصوّر المواضيع رمزيا، فحملت بين أسطرها صورا رمزية لقضايا المجتمع، والتي من بينها قضية واقع المرأة، ومكانتها الاجتماعية، ونظرة المجتمع إليها.

وعليه تتجلى أهمية هذه الدراسة في تحديد أدوار المرأة، ومكانتها الاجتماعية، من خلال قصص الحيوان، وسيكون هدف الدراسة إذن استنتاج الصور الرمزية لأنثى الحيوان، من مدونة الدراسة؛ حكايات جدتي لسيد أحمد نجمة، وتبيان أبعادها الدلالية.

هذه الأخيرة قد أثارت فضولنا المعرفي حول دور قصص الحيوان الشعبي الموجه للطفل في تبيان صورة المرأة الاجتماعية؛ فما علاقة الطفل بالحكاية الشعبية؟ ولم يجذب الأطفال نحو قصص الحيوان؟ وما هي المضامين الفكرية والصّور الذهنية التي تعكسها أنثى الحيوان في حكايات جدتي لسيد أحمد نجمة؟ وللإجابة على هذه الإشكاليات سنعتمد على المنهج الوصفي والمنهج البنوي، وسنستعين بآليات التحليل والتأويل.

المبحث الأول: الطّفل وقصص الحيوانات في الحكايات الشعبيّة

يولع الأطفال بسماع قصص الحيوان، لاسيما إن كانت من الحكايات الشعبيّة، فيتفاعلون مع أحداثها، ولتبيان ذلك وأسبابه، سنتطرق إلى توضيح علاقة الطّفل بالحكاية الشعبيّة بصفة عامّة، ثمّ نبين علاقته بقصص الحيوان من الحكاية الشعبيّة.

المطلب الأول: الحكاية الشعبيّة الموجّهة للطفل

الحكاية الشعبيّة الموجّهة للأطفال جنس أدبيّ، جمهورها الأساسي هم الأطفال، ولها خصوصياتها، ونتائجها عليهم. وبالتالي سنجزّء المطلب إلى جزأين؛ نحاول من خلالهما تقريب مفهوم الحكاية الشعبيّة الموجّهة للطفل، وتبيان آثارها على الطّفل.

أولاً: مفهوم الحكاية الشعبيّة الموجّهة للطفل

أدب الأطفال هو الإبداع المدوّن أو الشّفاهي الذي يستهدف فئة الأطفال من مرحلة ولادتهم إلى غاية سنّ المراهقة، أما الحكاية الشعبيّة فهي نتاج أدبيّ ينتقل في أصله بالمشافهة، وليس له جمهور معيّن، فقد ارتبط بالحكي للأطفال وللنساء وللرجال أيضاً؛ لأنّ هدفها بالأساس التّسلية بقصصها الخيالية والواقعية الاجتماعيّة والاتّعاظ بها، وفي هذا الصّدّد يقول عبد الحميد بورايو أن الحكاية الشعبيّة "هي أثر قصصيّ ينتقل مشافهة أساساً، يكون ثرياً يروي أحداثاً خيالية لا يعتدّ روايتها ومتلقّيها في حدوثها الفعليّ، تنسب عادة لبشر وحيوانات وكائنات خارقة، تهدف إلى التّسلية وترجيّة الوقت والعبرة".¹

وتتنوّع ضمن الحكايات الشعبيّة -حسب تصنيفه- كل من : حكايات الواقع الاجتماعيّ، والحكايات المحليّة، وحكايات الحيوان، والنّوادر أو الحكايات المرحّة. وهذه الأشكال الفرعية للحكاية الشعبيّة هي الأكثر تداولاً في الجزائر.²

وكثيراً ما استلهم كتّاب أدب الطّفل قصصهم من الحكايات الشعبيّة، خاصّة في مراحلها الأولى، فأغلب ما يُتداول على أنه أدب طفل هو حكاية شعبية في أصله تمّ تدوينها، ويحمل التّراث العالمي العديد من نماذجها؛ كحكاية علي بابا والأربعين حرامي، وحكاية السّندباد البحري، وحكاية سندريلا وحكاية بياض التّلج وغيرها.

وهذا راجع لكون الحكاية الشعبيّة بخاصّة والتّراث الشّعبيّ بعامّة هو الدّعم الأساسيّة لأدب الطّفل، وفي هذا الصّدّد يقول عبد الحميد يونس: "التّراث الشّعبيّ كان ولا يزال هو الدّعم الأولى والكبرى لأدب

¹ عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، د ط، دار القصة للنشر، 2007، الجزائر، ص 185.

² ينظر: المرجع نفسه، ص 90.

الأطفال، وهو في هذه الناحية لا يُمثل طفولة الإنسان - كما هو الظن في الماضي - ولكنه يمثل جميع الأطوار والمراحل الثقافية التي سارت فيها المجتمعات والشعوب على اختلاف بيئاتها وظروفها.¹ فيحمل التراث الشعبي ذاكرة الشعوب، وعلى مستواه تتقاطع تصوراتهم حول مسائل الحياة والموت، ولهذا يعدّ مادة خاماً لأدب الطفل.

وبالتالي فالحكاية الشعبية الموجهة للطفل هي ذلك الإبداع الشفاهي، الذي يُسمع من قبل الجدّات، أو كبار السنّ عموماً، ويكون الطفل من جمهوره الأساسي، وهي الشكل الأولي لأدب الأطفال المكتوب، وتحمل تصورات الإنسان ورؤاه.

ثانياً: آثار الحكاية الشعبية على الطفل

من آثار الحكاية الشعبية على الطفل، أنّها تمثل خطوة تمهيدية لإيلاجه عالم الحكايا، الذي يبدأ بحدوثه صغيرة تشمل صوراً ذهنية بسيطة، عناصرها من بيئة الطفل، إلى أن يتوسع ليشمل حيّزاً أكبر من المحيط وأشياءه، ويأخذ ممّا لم يره الطفل.

وتعدّ الحكاية الشعبية للأطفال أحد أهم مصادر الترفيه والمعرفة للطفل، "كما برهن بياجيه (Piaget)، فكر الطفل يبقى إحيائياً حتّى سنّ البلوغ، يقول له أهله ومعلّموه أنّ الأشياء لا تشعر ولا تستطيع أن تتصرّف، فيبذل جهده ليرضيهم عن طريق التظاهر بقبوله بذلك أو حتّى لا يتعرّض لسخريتهم، لكنّه يعرف في أعماق نفسه حقيقة شعوره. الطفل في خضوعه لتعليم الآخرين العقلي يذفن "معرفة الحقيقة" عميقاً في عقله، بملجأ من العقلانية ولكنّه يستفيد ويتعلّم ممّا تقوله له الحكايات الشعبية.² فعندما تقرأ الأمّهات أو الجدّات بعض القصص على مسامع الطفل، لينتسلي عن الجوع أو عن البكاء ويهدأ، هنّ بذلك يساهمن في خصب خياله وتوسيع دوائره المعرفية، وإثراء صورته التخيلية.

وبذلك تكون الحكاية الشعبية وسيلة تعليمية، يتعلّم منها الطفل، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، من خلال عالمها التخيلي، الذي يحمل الطفل إلى تلقي أبعاده الفكرية، لأنه يتناسب وطبيعة تفكيره ورؤيته للأشياء، ف"تقوم الحكاية الشعبية بتكوين المتلقي وتوظيف تخيله، وذلك بتوجيهه بطريقة متقنة تراعي خصوصياته النفسية وسياقه السوسيوثقافي لتوصيله بشكل ذكي إلى تمثّل مجموعة من القيم تساهم في بناء شخصيته بغية إدماجها داخل الجماعة لتكون نموذجاً طبق الأصل للنموذج السائد."³

¹ عبد الحميد يونس، دفاع عن الفلكلور، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973، ص 118.

² برونو بولتهايم، التحليل النفسي للحكايات الشعبية، تر: طلال حرب، دط، دار المروج للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1985، ص 69-70.

³ محمد فخر الدين، الحكاية الشعبية المغربية بنيات السرد والمخيّل، دط، دار نشر المعرفة، المغرب، د سنة، ص 28-29.

ويرجع ذلك لطبيعتها الفنية، وبنيتها السردية، التي تتماشى وإدراكه العقلي، فما يبدو للكبار غير منطقي، هو المنطق بعينه لدى الطفل، فيؤمن بها، وبالتالي سيتبنى كل أفكارها، وتنعكس على تصوّره جميع آثارها، فـ "الحكاية الشعبية تتبع منهجية تتلاءم تماماً مع إدراك الطفل ونمط اختباره العالم، ولهذا تبدو له الحكاية مقنعة جداً، فهو يستطيع أن يستمدّ الكثير من التشنّج منها. وهو ما لا يستمدّه من كل الأفكار والتفكير المنطقي التي بواسطتهما يحاول البالغ أن يطمئنه. الطفل يثق بما ترويه له الحكاية الشعبية لأنهما (الطفل والقصة) لديهما نفس الطريقة في فهم العالم".¹

ونخلص إلى أنّ الحكاية الشعبية للطفل هي إبداع جمهوره ليس الأطفال فقط، ولكنّه يعدّ وسيلة هامة من وسائل تثقيفهم، وغرس القيم الاجتماعية فيهم، وتعزيز المبادئ القويمة لديهم، كما تساهم الحكاية الشعبية في إثراء صور الطفل التخيلية، وهي بذلك دعامه لنشاطه العقلي، لأنها تتجانس ومزاجه الفكري. وهذا ما يؤهلها لتكون مصدراً يستلهم منه الطفل قيمه ورؤاه لنفسه وللعالم، من خلال صورها الدّنيّة والفنيّة التي تنغرس في وجدان الطفل بتوحّده مع بطلها، وبالتالي ستظهر آثارها عليه على المدى القريب أو البعيد.

المطلب الثاني: قصص الحيوان في الحكاية الشعبية الموجهة للأطفال

تعدّ قصص الحيوان واحدة من الأنواع الأدبية التي تضمّها الحكاية الشعبية، وفي الغالب تكون هي المفضّلة عند الطفل، ولتوضيح ذلك؛ سنحاول من خلال هذا العنصر تقريب مفهوم قصص الحيوان بشكل عامّ أولاً، ثمّ نقصرها على الحكاية الشعبية الموجهة للطفل، لنبين أهمّ خصائصها.

أولاً: مفهوم قصص الحيوان

جاء في معجم المصطلحات الأدبية؛ أنّ القصة الرمزية بلسان الحيوان هي: "قصة بسيطة قصيرة، تكون شخصياتها من الحيوانات عادة، وتستهدف تعليم الحقائق الأخلاقية، وتسمّى مثل هذه القصص أحياناً "خرافة الحيوان"، مثل كتاب الأدغال اكيلينج وكليلة ودمنة".²

ونجد في معجم المعاني أنّ كلمة "خرافة" هي: "أسطورة أو قصة ذات مغزى أخلاقي غالباً ما يكون أشخاصها وحوشاً أو جمادات، فنّ قصصي خرافي ذو مغزى يمثّل الحيوانات كشخصيات رئيسية في القصة ولكن بصفات إنسانية".³

¹ بوتلهام (مرجع سابق)، ص 69.

² إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، دط، النّعاضية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، تونس، 1986، ص 151.

³ معجم المعاني، مادّة خرافة، تاريخ النّشر: غ م ،

وقد نقل عبد الرزاق حميدة من دائرة المعارف البريطانية، أنّ الخرافات الحيوانية: "قصة يمثل الحيوان فيها دوراً إنسانياً".¹

وبالتالي فقصص الحيوان أو القصص الرمزية بلسان الحيوان، أو الخرافة، هي التي تأخذ فيها الحيوانات مهمة لعب الأدوار، وتتقمص بذلك شخصيات إنسانية، تحمل قيم الخير والشر، الإيثار والطمع، وغيرها من طبائع الإنسان. فالسارد إنسان، وبالتالي فمنطق الحكي سيكون من إنسان لإنسان، وليس من حيوان لإنسان، وهذا ما يجعلها تحمل كلّ قيم الإنسان، وأفكاره وتصوراته.

ثانياً: علاقة الطفل بقصص الحيوان في الحكاية الشعبية

يميل الطفل إلى حبّ الحيوانات، ويتعلّق بها، ويبني معها صداقات، ويطلق عليها تسميات مختلفة، فنراه يكلمها وكأنها أشخاص يحسون ويعبرون، فـ "الطفل مُقتنع أنّ الحيوان يفهم ويستجيب عاطفياً حتّى لو لم يعبر عن ذلك صراحة".²

ويرجع ذلك إلى طبيعة الطفل الحسية والإدراكية، فمحيطه كلّ يراه مشابهاً له، بغض النظر عن طبيعته، وكلّ الموجودات حوله لها نفس خصائصه النفسية والجسمية؛ لأنه "لا يوجد عند الطفل خطّ فاصل واضح بين ما هو جامد وما هو حي".³

وهذا ما يُفسّر تعلّق الطفل بقصص الحيوان، إذ "يولع الأطفال بهذا النوع من القصص ويرجع ذلك إلى المتعة التي يجدها الأطفال في تقمص أدوار الحيوانات في لعبهم الإيهامي".⁴ فالطفل في لعبه الإيهامي يتخيل شخصيات وهمية، ويتقمص شخصيات مختلفة، ويتحاور مع الحيوانات. ويذهب علماء النفس إلى القول أنّ للإيهام وظيفة مهمّة في نمو الطفل لأنه وسيلة لتنظيم الكثير من نشاطاته، وأساس لممارسته مهاراته الحركية، وسيلة إلى اتصالاته الاجتماعية، وطريقة إلى تنشيط تفكيره، وفعالياته بدلاً من أن تظلّ خاملة.⁵ فللعب الإيهامي أثر كبير في نمو الطفل العقلي والحركي والاجتماعي، إلى جانب المتعة التي

<https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%AE%D8%B1%D8%A7%D9%81%D8%A9>

تاريخ النّصف: 01-06-2023.

¹ عبد الرزاق حميدة، قصص الحيوان في الأدب العربي، دط، ملتزم الطبع والنشر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د سنة، ص 25، نقلاً عن ; 821 p, vol 1, S, Ency Chamber مادة Beast-Fable

² بوتلهام (مرجع سابق)، ص 70.

³ المرجع نفسه، ص 70.

⁴ حنين فريد فاخور، سيكولوجيا أدب وتربية الأطفال، دط، دار اليازوري العلمية للطباعة والنشر، الطبعة العربية، عمّان، الأردن، 2016، ص 62.

⁵ هادي نعمان الهيتي، أدب الأطفال، فلسفته، فنونه، وسائطه، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977، ص 23.

يجدها في هذا النوع من اللعب، فحين تُقرأ له قصة من قصص الحيوان، ينجذب إليها ويتفاعل معها، وربما يجسدها لاحقاً في لعبه الإيهامي.

وتنقسم قصص الحيوان حسب نمو الطفل وإدراكه إلى قسمين؛ ففي مرحلة الطفولة المبكرة تكون الحيوانات في هذه القصص من بيئة الطفل، ويجدها مألوفة عنده، كالقط والكلب والأرنب، بالإضافة إلى أنها تكون من الحيوانات الأليفة، أو تجسّد الوحشية منها أليفة، كالدب مثلاً، أما في مرحلة الطفولة الوسطى، تكون الحيوانات من عالم الغرائب والوحوش، كالديناصور والطائر العملاق، وفي هذا الصدد يقول هادي نعمان الهيتي: "وقصص الحيوان البسيطة التي تلعب فيها البطولة الحيوانات المألوفة تصلح للأطفال في مرحلة الطفولة المحدودة بالبيئة، ولكن الأطفال في المرحلة التالية يميلون إلى قصص الحيوان الخيالية، وبعد الثامنة من أعمارهم - كما يقول المربّون - يميلون مرة أخرى إلى قصص الحيوان، وخاصة تلك التي تلعب البطولة فيها حيوانات غريبة أو تعيش في منطقة نائية".¹

وتعدّ "حكايات الحيوان من أقدم الحكايات الشعبية، إن لم تكن أقدمها على الإطلاق، وعنها انبثقت باقي الأشكال التعبيرية الأخرى"²، فنجد التراث الشعبي يزخر بقصص الحيوان، بشكليها البسيط الذي يلائم المراحل العمرية الأولى للطفل، وشكلها الخرافي الذي يستهوي الأطفال في المراحل العمرية المتأخرة.

المبحث الثاني: الصورة الرمزية لأنثى الحيوان في حكايات جدتي لسيد أحمد نجمة

الصورة الرمزية هي الانطباع الذهني، الذي يعكس التصورات والأفكار، ولاستنباط الصورة الذهني لأنثى الحيوان، من حكايات جدتي لسيد أحمد نجمة، سنقسم المبحث إلى مطلبين؛ نوضح في المطلب الأول الصورة الرمزية في قصص الحيوان، ماهيتها وأبعادها، ثم نبدأ بعملية تحليل حكايات المدونة في المطلب الثاني، لاستخراج الصور الرمزية لأنثى الحيوان منها.

المطلب الأول: الصورة الرمزية في قصص الحيوان من الحكايات الشعبية

اتجهت المناهج المابعد بنبوية إلى النظر للعمل الأدبي كبنية لاتنفصل عن كيان الإنسان وعالمه، تربطه به، وتتمثل فيه بصور مختلفة، ولهذا اتجهت إلى اكتشاف الأبعاد الدلالية والرمزية، ومعرفة إichاءات الملفوظات السردية، واستقراء صوره الفنية، وإلى التأويل والتفكيك. فاستعانت في ذلك بأدوات إجرائية نقدية وأخرى من علوم أخرى في إطار النظرية الإيستيمولوجية، منها علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا. واعتبرت فنّ القصة " شكلاً سردياً ذا قالب منطقي مبني،

¹ المرجع نفسه، ص 152.

² كمال الدين حسين، الحكايات الشعبية لطفل ما قبل المدرسة، دط، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1993، ص 11.

يستعمله الإنسان للتعبير عن مفهومه للحياة وعن تصوراته في علاقته بالكون، لذا فهو يمثل الوسيلة المثلى لإدراك تحولات الشرط الوجودي للجماعات البشرية، ومن هنا يصبح لازماً على علم الاجتماع وعلم النفس أن يوليا عناية خاصة بفنّ القص في أيّ مجتمع من المجتمعات باعتباره حاملاً لمجموعة من القيم والتصورات، يسعى الدّارس لإدراكها من خلال تمثيلاتها في النصّ القصصي.¹

وباعتبار الحكاية الشعبية ذاكرة الشّعوب، تتناقلها وتؤمن بها، فهي ملأى بمختلف الأبعاد الاجتماعية والنفسية والسياسية، لكنّ القصص الشعبي لا يطرح قضية اجتماعية أو سياسية في حدود واقع اجتماعي معروف، فهو يتحايل على مواجهة الواقع، ويكاد يطرح شعوراً إنسانياً يأنف الظلم ويكره الجبروت، ويسعى دوماً إلى تحقيق الخير والعدل، ونشر الفضيلة بين الناس.²

ومن هنا يمكننا القول أنّ القصص الشعبي يطرح تصورات اجتماعية أو سياسية من خلال شعور نفسي عام، ولهذا يلجأ إلى الرموز والصورة الأدبية، فهي تبتعد عن المباشرة والتّصريح، فقد كانت نشأة القصة سياسياً، لانتقاد تجبر الحكام، وسوء حكمهم، وهذا ما يفسّر تميّز الحكاية الشعبية بأسلوب تجاهل الزمان والمكان، وعدم ربطها بمجتمع معين، واللّجوء إلى استخدام أصوات الحيوانات للتعبير عن قضايا إنسانية. ولهذا فـ "الأدب الشعبي غني بالمغزى والرموز التي تكشف عن تجارب الفرد الشعبي مع نفسه ومع الكون كله (...). العالم كلّ يتحدّث من خلال هذه الرموز".³

ولما كانت "الصورة هي البناء الذهني الذي يتمّ على مستوى الرمزية والذاتية والخيال، والذي يرتبط بواقع الإنسان من منطلق أن الإنسان بقدر ما يعي العالم المحيط به من خلال حضور الأشياء بذاتها في العقل، فإنه يعيه بطريقة غير مباشرة، حيث تتواجد هذه الأشياء عبر صور كيانات مجازية، ولكنها توطّر حياتنا وسلوكنا في المجتمع،"⁴ وبالتالي تكون صورة أنثى الحيوان هي النمط الذي تمثّله في قصص الحيوان، ويعكس أبعاداً اجتماعية ونفسية، ويحمل القصص الشعبي بصفة عامّة هذه الميزة، في التعبير عن الدّهنية والنفسية الجماعية، فـ "لاشكّ أنّ حكاياتنا الشعبية قد عاشت في بلادنا منذ قرون وارتبطت

¹ عبد الحميد بورايو، البعد الاجتماعي والنّفسي في الأدب الشعبي الجزائري، ط01، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، 2008، ص 05.

² التّلي بن الشّيخ، منطلقات التّفكير في الأدب الشعبي الجزائري، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 15.

³ نبيلة إبراهيم، أشكال التّعبير الشعبي، دط، دار نهضة مصر، القاهرة، د سنة، ص 08.

⁴ صالح سويلم، صورة المرأة في الأمثال الشعبية الأردنية، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، ع 07، الأردن،

2011، ص 36.

برغباتنا ومخاوفنا، بنظرتنا إلى الحياة والموت وبتصوراتنا للخير والشر، كما حملت اعتقاداتنا الشعبية وبقايا الأساطير التي راجت بيننا¹.

انطلاقاً من هذا سنحاول فيما يأتي تبين هذه الصورة التي تعكسها أنثى الحيوان، في حكايات جدتي لسيد أحمد نجمة، من قسم خرافات الحيوان، وتشير كلمة خرافة إلى اللاوقعية واللاعقلانية، والتي تُخالف الواقع والمنطق، ولكن اللاواقعي للإنسان يتشكل انطلاقاً من واقعه، وعلى إثر ذلك سنحاول قراءة هذا الواقع من خلال خرافات الجماعة الشعبية المُجسّدة في قصص الحيوان.

المطلب الثاني: تحليل الحكايات المختارة

لاستنباط صورة أنثى الحيوان من حكايات جدتي لسيد أحمد نجمة، سنجزء المطلب حسب مراحل التحليل، فنبدأ أولاً بلمحة عامة عن الحكايات؛ وفيها وصف المدونة ككل، ووصف لقسم خرافات الحيوانات، وهو موضوع الدراسة. ثم ننتقل في الجزء الثاني من المطلب إلى تحليل معطيات الحكايات انطلاقاً من الدراسة الوصفية، لنعرض من خلالها صورة أنثى الحيوان.

أولاً: لمحة عامة عن الحكايات

تتنتمي الحكايات التي نحن بصدد استجلاء صورة أنثى الحيوان منها، إلى كتاب "حكايات جدتي" لسيد أحمد نجمة، وهو عبارة عن تجميع لحكايات شعبية، سردها جدّة الكاتبة عليها؛ تقول في مقدمة الكتاب: "هي عِبر و عِظات بها ربّنتي جدّتي وصوّبت عودي، كلّما لمست به ميلاً وقومت اعوجاجي واعوجاج غيري كلّما اقتضت المواقف (...) إنّها سبيكة ثقيلة من نفائس الفكر الشعبي، انصهرت فيها كثير من حكم العامّة".² ، فكان الهدف الرئيسي المُصرّح به من قبل المبدعة تربويّاً بالأساس، فهذه الحكايات ترمي إلى غرس القيم النبيلة وتقويم السلوك البشري، فهي خلاصة تجارب ذوي الحكمة، ممن جرّبوا الدّنيا وخبروها، تقول: "معظم هاته السّوالف أساطير وأحاج من ماضٍ شعبي الغابر، ومن ثقافة وطني التّليدة، وبها أيضاً كثير ممّا عايشته جدّتي بين الفلاحين وأهل القرى، لاسيما أولاء النّسوة المُغيّبات في خُدورهنّ بين جهل وشقاء".³ وقُسمت الحكايات إلى ثمانية أقسام؛ وهي على التّوالي: حكم وأساطير - اجتماعيات - ذكريات وتجارب - عجائب الخيال - خرافات الحيوان - فكاهات - تغامز بين قبائل البربر - تسليات.

¹ محمد فخر الدين (مرجع سابق)، ص 21.

² نجمة سيد أحمد، حكايات جدّتي، ط01، منشورات ANEP، الجزائر، 2002، ص 09.

³ سيد أحمد (المصدر السابق)، ص 10.

وقد سلّطنا الضوء في دراستنا على قسم خرافات الحيوان، لاستجلاء صورة أنثى الحيوان منها، واستقراء أبعادها الدلالية والفنية، من خلال تحليل القصص أولاً واستنتاج السمات المشتركة بينها، ثم استنباط صورة أنثى الحيوان منها، لنبيّن بعد ذلك أهمّ قضايا المرأة التي تعكسها، ونخلص إلى استنتاج دور المخيال الشعبي في ترسيخ الصورة النمطية عن المرأة.

احتوى قسم خرافات الحيوان على سبع وعشرين حكاية، منها ثلاث عشرة حكاية فقط ورد فيها ذكر لشخصية أنثوية، سنحاول قراءة صورها فيما يأتي.

1. جدول الدور الاجتماعي للشخصيات الأنثوية :

القصة	الشخصية الأنثوية	الدور الاجتماعي
ورزمان	اللبوة	أم
الراعي والسلحفاة	السلحفاة	غير محدد
عمي أبو فكران	السلحفاة	زوجة
برغوث سيد الرجال	القملة	زوجة
الفأر والفأرة	الفأرة	زوجة
القنفذ والذئب والأرنب	الأرنب	غير محدد
الذئب والعصفور والبلاجر	العصفورة	أم
الناقة الرؤوم	الناقة	أم
النحلة الفصيحة	النحلة	غير محدد
الضفدع السعيدة	الضفدع	غير محدد
الزنبور القائد	النحل	غير محدد
مثلُ النعجة	النعجة	أم
ماعر بنت العار	ماعر	غير محدد

سنستعين بهذا الجدول لتسهيل عملية التحليل؛ حيث أنه يوضّح مجموع قصص الحيوان، من قسم خرافات الحيوان، وفيه عرض للشخصية الأنثوية، من كلّ حكاية، ودورها الاجتماعي، من ناحية الزواج والأمومة.

ثانيا: تحليل المعطيات

انطلاقا من المعطيات الموضحة في الدراسة الوصفية، يمكننا القول إن هناك قدرا من التشابه بين الحكايات، فهي جميعا اتخذت من حافز الأنثى محورا لتحريك الأحداث، بإمكاننا أن نلخص صور الأنثى التي تميزت عليها في هذه الحكايات، وأن نبين أبعادها الاجتماعية والنفسية كالاتي:

1. صورة الأم:

تظهر الأم في هذه الحكايات بصورة المضحية من أجل صغارها، والتي تثور وتغضب من أجلهم، فقد انتقمت اللبوة أشد انتقام من الذئب الذي أكل ابنها ورمزها، وهذا ما يوضحه المقطع الآتي: " فانقضت عليه، وفي وثبة واحدة، اقتلعت قلبه ¹؛ وفي هذا إشارة للأطفال أنهم في أمان دائما، فالأم دائما معهم، وستعاقب أشد عقاب من يقترب منهم بأذى.

كما ظهرت الأم أنثى عطوفا على أولادها، وتكرس حياتها لخدمتهم ورعايتهم، وهذا ما تمثله حكاية الناقة الرؤوم، فهذه الناقة صاحبة القلب الذي لا يعرف القسوة كما نُعتت بالرؤوم، توجّهت بوصلة حياتها لأطفالها، تقول: " من يوم ولدت صغاري، ما شربت الماء صافٍ، ولا أكلت العلق وافٍ! ².

ونجد الأم كذلك في هذه القصص لا تكثرث لأمر أحد غير أولادها، ففي حكاية الذئب والعصفورة والبلاجر؛ حين طلب البلاجر من العصفورة ألا تقول للذئب أنه صاحب فكرة التخلص منه، بمجرد سؤال هذا الأخير عن أرشدها إلى هذه الكلام أقرت دون وعي منها، ولم تكن تهدف إلى الإقرار بالبلاجر، ولكن تركيزها على حماية أطفالها جعلها تقرّ في حينها، يوضح هذا المقطع الموالي:

" (...) - ومن علمك هذا أيتها الجاهلة؟

قالت متهمّة:

- ها! ... وهل طمعت أن أنبئك أنه عمي البلاجر؟ ³

فحين قصد الذئب العصفورة وطلبها في فراخها أن ترميهم له من أعلى الشجرة، وهدهدا إما أن تعطيهم له أو أن يقلع بها الشجرة، ألقت العصفورة فراخها له، لكنها انكسرت وحزنت حزنا شديدا حين أكل الذئب صغارها، سألتها البلاجر:

" - ما بك يا عمّة عصفورة كذا منكسرة؟

قالت:

¹ نجمة سيد أحمد، حكايات جدتي، ص 353.

² المصدر نفسه، ص 390.

³ المصدر نفسه، ص 388.

- إنَّ الذئبَ أكلَ جِلَّ صغاري وإنَّه لا ينفكَّ يزورني مهدداً¹

ومن ثمة فإنَّ الصورة التي حملتها أنثى الحيوان الأم، هي صورة الأم في المخيال الشعبي، صاحبة القلب الكبير التي تعطف على صغارها، وتمثِّل الأمان لهم.

2. صورة الزوجة:

تمظهرت الزوجة في هذه الحكايات بصورة المرأة المطيعة لزوجها والتي تبقى وفيه له حتى بعد وفاته، ففي قصة برغوث سيد الرجال، بقيت القملة حزينه على زوجها البرغوث بعد أن مات ببخار القدر الذي أزاحه لكي يأكل قطعة اللحم منه، وأحزنت معها كلَّ الطَّبيعة؛ " فأسقطت المواعيز قرونها وحزنت الطَّبيعة كلَّها على برغوث سيد الرجال تسوّق سوق "ميلة". طاح في البرمة ومات"². وهي الجملة التي قالتها للحدأة تعبيراً عن حزنها، وهذه الأخيرة قالتها للشجرة، التي روت القصة للشجرة، التي حكّت للمواعيز.

وتظهر الزوجة مساندة لزوجها، ولها أعمالها الخاصّة بها، كشخصية القملة من حكاية برغوث سيد الرجال، وشخصية السلحفاة من حكاية عمّي أبو فكران، ويظهر كذلك أن سر الزواج السعيد هو طاعة الزوجة لزوجها وقناعتها بمعيشتها معه، فحين طالبت السلحفاة أبا فكران أن يعطيها النفقة، ولم يكن معه مالا ليعطيها إيّاها، غضبت غضبا شديداً، وغادرت، ولم ترجع عن قرارها، إلا حين تمّ تهديدها بالضرب من قبل سيّ البوس، ففشلت المحاولات اللطيفة لإرجاعها عن قرارها من قبل كلّ من الدّجاجة والنسر والبغل، أمّا سيّ البوس فمجرّد تهديده لها بالضرب وافقت مباشرة على الرجوع لزوجها، وهذا ما يوضّحه المقطع الآتي: " فقالت له:

- من يدقّق على عشتي؟

قال غير متبسّط، متشدّد:

- عمّك سيّ البوس بن سيّ البوس. قد أمسك بالدّبوس. قومي أو ضربت رأسك في الدّانوس !.

فقالت مُتلطّفة تضحك ضحكات قصيرة مُتردّدة :

- نكُتحل ونُسْناك ونمشي مع سيدي"³

وفي هذا إشارة إلى صورة الزوجة في المخيال الشعبي والتي تتميز فيه بطيشها وقلة صبرها، وأنَّ أفضل طريقة للتعامل معها هو الضرب وليس الكلام اللين.

¹ نجمة سيد أحمد، حكايات جدتي، ص 387.

² المصدر نفسه، ص 368.

³ نجمة سيد أحمد، حكايات جدتي، ص 363.

أما إن كانت الزوجة ليّنة الطباع صبورا مع زوجها، فستجازى بإخلاص هذا الأخير، وهذا ما توضّحه حكاية الفأر والفأرة، فحين تمزّقت أمعاء هذه الأخيرة، وكانت حسب معطيات الحكاية زوجة حليلة متساهلة تتغاضى عن أخطاء زوجها ولا تلقي بالا لتصرفاته الرعناء، أسرع هذا الأخير لإنقاذها، لكن الأجل سبقه.

وبالتالي فقد حملت أنثى الحيوان التّصور الشّعبي عن الزّوجة، ويمكننا القول هنا أن هذا انعكاس لذهنية المجتمع الذّكوري، الذي يعبر من منظور الفكر الذّكوري، حيث يرى الأنثى تابعة له، وليست مشاركة له، حتّى وإن كان بلسان امرأة، هذا من جهة ومن جهة أخرى مثّلت الزوجة التي هي شريك للرجل، تتقاسم معه أعباء العمل وهموم الحياة.

3. صورة اللّام واللازوجة:

نلاحظ من خلال قصص المدونة أنّ الأنثى التي لم يتم تحديد مكانتها الاجتماعية بمرجعية الزواج والأمومة، ظهرت بصورة الأنثى التي يستقوي عليها الآخرون، فقد قتل الراعي السلحفاة، وظلم القنفذ القاضي للأرنب، وتجرّب الزنبور (الدبور) على النّحلة.

وتظهر كذلك هذه الأنثى، التي لم يقتزن وجودها بطرف آخر، بصورة الحمق والطيش والغباء، وقد يبلغ بها الأمر لأن تودي بنفسها للتهلكة، كما حصل مع النحلة في حكاية "النحلة الفصيحة" التي دفعها حمقها وخفة عقلها للدعاء على نفسها بقولها: "بحقّ جلالتك وعزّتك يا الله، ما لدغْتُ أحداً إلّا متّاً. وكانت تقصد: ما لدغْتُ أحداً إلّا مات!"¹.

كما ارتبط اسم الماعز في المدونة بالسلوك المشين وبالوقاحة والابتذال، وهذا ما تبرزه حكايتا "مثلُ النّعجة"، و"ماعر بنت العار"، هذه الأخيرة عوقبت بسبب أنّها أسَمَعَتْ عطستها في البراري وتحدّث بيئتها وما تجذر فيها من أعراف وتقاليدها راسخة، أمّا في حكاية "مثل النّعجة"، فقد فضل المخيال الشعبي النّعجة التي تسير وذنبها بين كراعيها (ساقبيها) على الماعز التي تمشي وذيلها مرفوع عن دبرها، إشارة إلى قلّة حيائها، وهو ما يظهر في المقطع الموالي: "اللهمّ أعطينا سنّرة النّعجة وأبعدْ عنا فتنة الماعز! لأنّ الماعز تمشي وذيلها مرفوع عن دبرها بينما النّعجة تسير وذنبها بين كراعيها حياء"². ومعروف في البيئة العامية الجزائرية إطلاق تسمية "المعزات" على البنات الطائشات صعبات المراس اللواتي يعجز أهلهن عن التحكم في تصرفاتهنّ الرعناء.

¹ المصدر نفسه، ص 391.

² المصدر نفسه، ص 394.

وفي هذا تمظهر للسنن الاجتماعية، التي توطّر أخلاقيات المرأة، وتعطي لها مكانة بطرف آخر، فلا أهمية لها إن لم يقترن وجودها بأولاد أو بزواج، وهي مصدر عارٍ إن خرجت عن أطر المجتمع وخالفته.

الخاتمة:

بعد محاولة استقراء صورة الأنثى في حكايات جدتي لسيد أحمد نجمة، تبين لنا في الأخير أن الحكاية الشعبية الموجهة للطفل مصدر مهم لتعزيز نشاطه العقلي والتخيلي، وتغرس فيه القيم والمبادئ الخلقية، كما تشكل له صورة ذهنية عن القضايا الاجتماعية. ويميل الأطفال إلى قصص الحيوان، لأنها تتناسب وطريقة تفكيرهم ورؤيتهم للعالم.

وقد مثلت أنثى الحيوان في حكايات جدتي لسيد أحمد نجمة انعكاساً لذهنية المجتمع؛ إذ تبين لنا أن الصورة الذهنية المترسخة عن الأنثى انعكست في الإبداع الجمعي على لسان الحيوان، فتتوعدت تمظهراتها في المدونة وتأرجحت مواقفها ونظرة المجتمع إليها بين السلبية والإيجابية.

لقد تمظهرت الأنثى في خرافات الحيوان من "حكايات جدتي" في صورة الأم والزوجة واللام واللازوجة؛ حيث تمثلت الأم عن طريق أنثى الحيوان كمصدر أمان للطفل ورمز للتضحية والنضال، أما الزوجة فقد صورتها خرافات الحيوان بصورتين؛ سلبية وإيجابية بالنظر إلى علاقتها مع الآخر (الرجل)، وفيما يخص الأنثى التي لم يتحدد دورها الاجتماعي، ولم يرتبط وجودها مع آخر، فقد حملت صورة سلبية، ارتبطت بالضعف، وقلة النباهة، وبالعار.

ونوصي في الأخير بدراسة الذهنية الجماعية للشعوب من خلال الحكايات الشعبية، خاصة إذا ماتعلق الأمر بصورة الرجل في المخيال الجمعي، وكيف تم تصويره، ومقارنة النتائج مع صورة المرأة.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا الكتب:

- إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، ط1، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، تونس، 1986.
- برونو بوتلهام، التحليل النفسي للحكايات الشعبية، تر: طلال حرب، دط، دار المروج للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1985.

- التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.
- حنين فريد فاخور، سيكولوجيا أدب وتربية الأطفال، دط، دار اليازوري العلمية للطباعة والنشر، الطبعة العربية، عمان، الأردن، 2016.
- عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، د ط، دار القصة للنشر، 2007، الجزائر.
- عبد الحميد بورايو، البعد الاجتماعي والنفسي في الأدب الشعبي الجزائري، ط01، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، 2008.
- عبد الحميد يونس، دفاع عن الفلكلور، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973.
- عبد الرزاق حميدة، قصص الحيوان في الأدب العربي، دط، ملتزم الطبع والنشر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د سنة.
- كمال الدين حسين، الحكايات الشعبية لطفل ما قبل المدرسة د ط، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1993.
- محمد فخر الدين، الحكاية الشعبية المغربية بنيات السرد والمتخيل، دط، دار نشر المعرفة، المغرب، د سنة.
- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير الشعبي، دط، دار نهضة مصر، القاهرة، د سنة.
- نجمة سيد أحمد، حكايات جدتي، ط01، منشورات ANEP، الجزائر، 2002.
- هادي نعمان الهيتي، أدب الأطفال، فلسفته، فنونه، وسائطه، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977.

ثانيا المقالات:

- صالح سويلم، صورة المرأة في الأمثال الشعبية الأردنية، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، ع 07، الأردن، 2011.

ثالثا المواقع الالكترونية:

– معجم المعاني، مادة خرافة، تاريخ النشر: غ م ،

<https://www.almaany.com/ar/dict/ar->

[/ar/%D8%AE%D8%B1%D8%A7%D9%81%D8%A9](https://www.almaany.com/ar/dict/ar-%D8%AE%D8%B1%D8%A7%D9%81%D8%A9/)، تاريخ التصفح: 01-

2023-06.